

اجتهادات هل توجد أفكار متوحشة؟

يستخدمُ بعض أنصار العدالة الاجتماعية تعبير التوحش في نقدهم لنسق فكري يرون أنه المسئول عن توسع معدلات الفقر منذ ثمانينيات القرن الماضي. عبارة الليبرالية المتوحشة شائعة في خطابهم. يدركُ بعضهم الفروق بين الاتجاهات الليبرالية المختلفة، فيما لا يعرفها بعضُ آخر منهم. ولكن سياقات خطاباتهم تفيدُ أن الليبرالية الجديدة هي الموصوفة بالمتوحشة، كما نفهمُ مثلاً من كتاب الراحل العزيز د. رمزي زكي (الليبرالية المتوحشة).

والسؤال الذي يحفزُ على التفكير هو: هل توجدُ أفكارُ متوحشة، وأخرى أليفة؟ وهل المشكلة في الأفكار أم في من يطرحونها وبعض من يطبقونها؟

ومنطقُ السؤال أن اتهام الأفكار بالمسئولية عن أفعال البشر بها، أو باسمها، يقودُ إلى إغفال أن منها ما لا تظهرُ أضراره إلا عند استخدامه بطريقة معينة. وإذا كان من

يستخدمون الفكرة ليسوا هم من طرحوها أو بلوروها،
يصبح التفكير المتأنى ضرورياً عند تحديد المسؤولية عن
شروع معينة تحدث عندما تُرسم سياساتٌ منسوبةٌ لها.

والمسألة، هنا، أبعد من الجدل التقليدي حول النظرية
والتطبيق، ولكنها ليست منبئة الصلة به. فثمة طروحات لا
تعدُّ نظرياتٍ مغلقةٍ، ولكنها تؤثرُ في أشخاص يتبنونها،
سواء فهموها بشكل صحيح أم خطأ. الليبرالية الجديدة،
مثلاً، ليست نظريةً مغلقةً بل نسق فكري قائم على رؤيةٍ
منهجية معقدة تتضمنُ عناصر عدة اشتهر منها ما يتعلقُ
بالتفاوت الاجتماعي. ويختلف أكاديميون تتلمذوا على
مؤسسيها، أو تأثروا بها أو تبناها، في تقييم بعض
السياسات الاقتصادية المنسوبة إليها. والماركسية مثالُ
ثانٍ. فبعد سنواتٍ من رحيل مؤسسها صارت
«ماركسيات» عدة لكل منها نسقها الفكري مع وجود
مشاركات بينها أخذت تقلُ مع الوقت.

فهل بعد هذه الخبرات وغيرها، وبعد تطورٍ كبيرٍ في علم
اجتماع المعرفة، ألا يصحُّ إجراء مراجعة موضوعية
للميل إلى اتهام أفكارٍ بأنها متوحشة، وإدراك أن من
يطرحونها وبعض من يستخدمونها هم المتوحشون. ولكن

وصفهم بالتوحش يتطلبُ بدوره تفكيرًا, لأنه قد يكون
ظالمًا لوحوش الغابة, بعد ما تبين أن غير قليل من البشر
أكثر توحشًا من معظمها, وهو موضوع واسع نبقى مع
أحد أبعاده غدًا.